الأستاذ الدكتور بوعلام بلقاسمي كما عرفته عن قرب في عُمان

بقلم: الدكتور أحمد يوسف، أكاديميّ جزائريّ، سلطنة عمان

ahyoucef@yahoo.fr

أوّل ما تعرفت إلى الأستاذ الدكتور بوعلام بلقاسمي المغفور له بإذن الله كان ذلك في وهران عاصمة الغرب الجزائريّ في بداية التسعينيّات من القرن العشرين، وفي جامعتها التي كانت تضم آنذاك أرقى الباحثين في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، وبلا شك في العلوم الأخرى. وعندما أزعم بوجود باحثين مرموقين؛ فمما لا شك فيه أنّ الفقيد د. بوعلام بلقاسمي كان أحد هؤلاء الكفايات العلميّة والقياديّة التي شرّفت الجامعة الجزائريّة والبحث العلميّ والتكوين العلميّ الرصين نظرًا للمميزات التي كان ينماز بها عن غيره، كما شرّفت بلادها.

كان خير سفير لها دون اعتماد، وكان يمتلك من الغيرة الوطنيّة ما لا مجال للمقارنة بأدعيائها الذين هم غثاء كغثاء السيل؛ إذ كان لا يتردد البتة في تلبية دعوات سفارة الجزائر بمسقط في المناسبات الوطنيّة والتاريخيّة، فكان يقدم محاضرات أمام الجالية الجزائريّة حول قضايا تاريخ الجزائر، وأذكر منها محاضرة حول تاريخ الديبلوماسيّة الجزائريّة المشهود لها بالسريّة والفاعليّة والنجاح. وقد حضر هذه المحاضرة وزير الخارجيّة الجزائريّة آنذاك رمطان لعمامرة وعدد من السفراء المعتمدين في سلطنة عُمان.

وفي هذه الشهادة التي أدرك سلفًا أنّها لا توفي حق هذه الشخصية الإنسانيّة والأكاديميّة المرموقة، وتغفل الكثير من الخصائص التي كانت تميّز شخصية الأكاديميّ بوعلام بلقاسمي؛ ولكنني سأركز على بعض المسائل التي خبرتها في شخصيته نتيجة معرفتي السابقة بالمؤرخ في سلطنة عُمان، ومعرفتي اللصيقة التي جمعتني به في جامعة السلطان قابوس في السنوات الأربع الأخيرة قبل وفاته.

كان رجلًا كريمًا وخدومًا ووفيًّا لمن أحبّهم. لا يتوان في استقبال ضيوفه، فيكرم وفادتهم سواء أكانوا من الجزائريّين الزائرين أم من غير الجزائريّين. ولعلي قد أعود إلى الخصال الإنسانيّة لهذه الشخصيّة، وأركز هنا على بعض السمات العلميّة والمعرفيّة التي لمستها في شخصه نظرًا لاحتكاكي المباشر به في كليّة الآداب والعلوم الاجتماعيّة بجامعة السلطان قابوس.

ومن هذه السمات نذكر منها ثلا خصائص:

1- **الروح القياديّة:** لا يلزم من عرف شخصية الدكتور بوعلام بلقاسمي وقت طويل ليكتشف فيه روح القيادة الإيجابيّة التي تتمتع بخصال روح الابتكار والمبادرة المسؤولة. وهي متأتيّة من الهبة الربانيّة أوّلًا، ومكتسبة من الخبرات الواسعة التي ظفر بها من محيطه العائليّ والتربويّ والثقافيّ وحتى السياسيّ ثانيًا. فقد تعرف إلى شخصيات علميّة ذائعة الصيت في العالم، ومثقفين كبار من الجزائريين والمغاربة (تونس والمغرب الأقصى) والعرب والعجم وسياسيين مثل الرئيس الأسبق أحمد بن بلة ووزراء وولاة ورؤساء جامعات وعمداء داخل وطنه وخارجه.

تجلّت موهبته وكفايته في التدريس والبحث العلميّ، وفي خدمة تاريخ بلاده انطلاقًا من نشاطاته التي لم تعرف الملل والكسل في أثناء إدارته للمجلس العلميّ للمركز الوطني للدراسات التاريخية الخاصة بالحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر التابع لوزراة المجاهدين، وكان زمليه الدكتور جمال يحياوي يتولى إدراته، وطالما حدثني عن شخصية الدكتور الذي التقيت به في سلطنة في زيارة علميّة. فكم هي المشاريع الكبرى التي قدمها المجلس في أثناء ترؤسه لها، وبشهادة ممن كان معه في هذا المجلس، وليس أدلّ على ذلك الثقة التي وضعها في شخصه وزير المجاهدين آنذاك.

كل هذه العوامل وغيرها أسهمت في إبراز هذه الخصيصة القياديّة في شخصه، فساعدته على تقلد مناصب عديدة أذكر منها رئيس معهد التاريخ سابقا، وعميد كليّة الحضارة والعلوم الإسلاميّة ومدير متحف وهران ورئيس المجلس العلميّ للبحوث التاريخيّة التابع لوزارة المجاهدين وتأسيس اتحاد المؤرخين الجزائريّين. فبرزت قدراته في مجال التسيير وإدارة الأزمات التي كان يعالجها بذكاء وشجاعة وصبر ومسؤوليّة.

ولا غرو أن تتجلى هذه الروح تجليًّا سريعًا في السنوات الأربع التي التحق فيها بقسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الاجتماعيّة بجامعة السلطات قابوس (سلطنة عُمان)، فلمسها زملاؤه في القسم، ومن عمل معه في لجان الكليّة والجامعة؛ إذ تقلد رئيس تحرير مجلة كلية الآداب إلى أن التحق بجوار ربه. ومنذ الوهلة التي تقدم فيها إلى منصب أستاذ في التاريخ الحديث بجامعة السلطان قابوس اكتشفوا مواهبه وقدراته وإخلاصه وتفانيه في العمل، وعقدت عليه بعض الآمال في الدفع بتطوير قسم التاريخ وتكوين باحثين أكفاء، بل كان له طموح كبير لتطوير في تطوير الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) في القسم، وكذا الخطط الدراسيّة في مرحلة البكالوريوس، وبعث روح جديدة في عمل القسم، وكان كثير من زملائه يبدون تعاونا مشهودًا.

ومما لا ريب فيه أنّ هذه الروح القياديّة انعكست إيجابًا على أسرته وأبنائه وزملائه القريبين منه. ومثل هذه الروح قد تخلق لدى من لا يعرف أسراره سوء فهم، وقد تتحول إلى خلاف؛ ولا سيما اتخاذ بعض القرارات بحكم المسؤوليّة التي يتقلدها صاحب الروح القياديّة. وهذا لا يسلم منه البشر مهما كانت أخلاقهم. فقد عانى الأنبياء والصالحون والمصلحون ومن له بصيرة ونظر معاناة شديدة. وفي هذه الحالة نلفي شخصية بوعلام تملك قدرة على إدارة الأزمات وتحمّل المسؤوليّات في القرارات التي يتخذها إنْ في حياته العائليّة، وإنْ في حياته العمليّة والعلميّة. ومن ميزات هذه الروح القياديّة أنّها لم تكن تهادن الرداءة وأهلها، ولعل ذلك قد سبب له بعض الخصومات من بعض أهلها.

2- **تعدد اللغات**:

قد تكون معرفة الدكتور بوعلام بلقاسمي باللغات الأجنبيّة ومنها العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة التي كان يتقنها إتقانا جيدًا، بل ممتازًا- عاملًا من العوامل التي ساعدت على إبراز الروح القياديّة لديه. وعلى خلاف جيله اختار مزاولة دراسته في إنجلترا بدل فرنسا أو البلاد العربيّة التي كان يحج إليها الباحثون الجزائريّون طلبا للعلم والحصول على شهادات الماجستير والدكتوراه. وقد اقتفى في ذلك أثر شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله رحمة الله عليه.

إنّ هذا الاختيار في إنجاز دراسته العليا باللغة الإنجليزيّة في بريطانيا مثله في ذلك مثل بعض أسلافه الذين سبقت إليهم الإشارة كان له الأثر الطيّب في تصوّره الفلسفيّ للتاريخ، والخروج من نظرة المدرسة الفرنسيّة، وتعصب بعض أشياعها للتاريخ عامة وتاريخ الجزائر خاصة، وتنويع مصادره؛ ولعل ذلك ما نلمسه في بعض كتاباته، وفي مناقشاته المنهجيّة الدقيقة، ولعلي كنت محظوظًا لمدة أربع سنوات في سلطنة عُمان عندما اقتربت منه، وكنا نقضي أوقاتا في الحديث عن التاريخ والسياسة والأدب والدين؛ إذ استمتعت بأحاديثه وآرائه التي كنا نختلف في بعضها، وكان لبقًا في تقدير فضيلة الاختلاف.

ودون الانقياد لمذهب همبولدت في فلسفة اللغة؛ فإن الثقافة الأنجلوسكسونيّة أسهمت إسهامًا واضحًا في بناء عقليته التي تمجد العلم والمنهج، وتنحاز إلى الحقيقة، وتتبع تفاصيل المسائل والقضايا المطروحة. كما أنّ معرفته بالفرنسيّة أهلته إلى الإحاطة بالمدارس التاريخيّة؛ ومنها مدرسة الحوليات التي كان يوجه إليها طلابه في الدراسات العليا.

إنّ ميزة التعدد اللغويّ لديه سمحت له بأن يتتبع القضايا التاريخيّة في مظانها العربيّة والأجنبيّة، لم تجعله مؤرخًا تقليديًّا، وسمحت له أيضًا في المشاركة في ندوات ومؤتمرات عالميّة، والإشراف على طلبة أجانب منهم أمريكان، وكذلك المشاركة في لجان جامعة السلطان قابوس، ومنها لجان الكليّة والجامعة على

السواء. ومما ذكره لي أنّ ذات اجتماع بكلية الآداب والعلوم الاجتماعيّة بسلطنة عُمان كانوا يناقشون مشاريع البحث؛ وإذ بمشروع تقدمه أستاذة أمريكيّة وإذا به ينتقد المشروع؛ لأن الباحثة أرادت أن تدرس لهجة من لهجات عمان الجنوبيّة، فسألها هل تعرفين هذه اللغة؟ واستطاع أن ينتقد المشروع دون عقدة نقص تجاه الآخر الذي لا يريد أن يستغل طيبة أهل عُمان لأغراض غير علميّة. وهذا أكسبه الكثير من الاحترام والتقدير من المسؤولين وزملائه.

3- الرصانة العلميّة:

عطفًا على ما سلف إنّ التعدد اللغويّ وما ينماز به من ثراء ساعد الراحل عن دنيانا د. بوعلام بلقاسمي على التعرف إلى المدارس الكبرى في فلسفة التاريخ ومنهجياته؛ إذ كان على دراية بالمدرسة الوضعانيّة المتشربة لأساليب البحث لدى المؤرخين الألمان وفلاسفتهم. وقاد تبنى مؤرخو السربون الفلسفة الوضعيّة في تحليل الوقائع التاريخيّة وتمسكها بمنطق الوثيقة والاحتكام المتعصّب للروح القوميّة التي ولدت في ألمانيا. ولكن كان يميل إلى التصور الحديث للدراسات التاريخيّة في الممثلة في "الحوليّات"، ويوجه طلبته في الدراسات العلميّة للاعتناء بتاريخ عُمان الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثقافيّ. وهو يجسد في ذلك فلسفة الحوار بين التاريخ والعلوم الاجتماعيّة على نحو ما دشنه هنري بيير الذي مثل فكرة الحوليّات قبل نشأتها.

شاركت معه في ندوات، وأذكر منها ندوة خاصة بالتاريخ العُمانيّ نظمتها شبكة المصنعة الثقافيّة، واستمعت لبعض محاضراته ومنها "التاريخ والذاكرة" في رحاب كليّة الآداب والعلوم الاجتماعيّة بجامعة السلطان قابوس، وترأست مناقشة أطروحة ماجستير كان يتولى الإشراف عليها، ولم يكن يتنازل عن القضايا العلميّة، بدليل أنّه لم يهادن من كان يريد أن يستغل التاريخ لغير أغراض البحث فيه، وكان ينتقد انتقادًا لاذعًا كل من يريد يشوه التاريخ لدوافع إيديولوجيّة.

كان يمتلك قدرة مشهودة على تحليل الخطاب التاريخيّ، والشاهد في هذا المقام تحليله البارع لوثيقة ثورة أول نوفمبر 1954 المجيدة، وتطبيق الآليات المنهجيّة في تحليل الخطاب التاريخيّ، وأسرّ إلي بأنّه كان سيكون محظوظا لو وقع بين يديه المسودة لهذه الوثيقة التي كتبت بالفرنسيّة. وتجلت مهارته في طرائق تحليله للخطبة الأولى للسلطان قابوس بتاريخ 9 أوت 1970، وخطبيتيْن سابقتين، وكان يركز في الخطبة السياسيّة على القضايا الكبرى مثل المصالحة بين أفراد قوى الشعب العُمانيّ بمختلف أطيافهم، وتوحيد جهود الفاعلين في المجتمع، وتحقيق المساواة وإنجاز العدالة والتنمية عن طريق تطوير الاقتصاد وتنويع مصادر الثروة، والاعتناء بالمؤسسة العسكريّة وكل القوى الأمنيّة والتعليم والإعلام...إلخ.

ونظرًا لتخصصه في مجال التاريخ الحديث والمعاصر كان له معرفة سابقة بتاريخ شرق أفريقيا الذي كان للإمبراطورية العُمانيّة بأسطولها البحريّ حضور بارز فيه، وشارك في ندوات علميّة حول تاريخ سلطنة عُمان في الداخل والخارج، وساعدته معرفته باللغتيْن الإنجليزيّة والفرنسيّة على فهم الصراع السياسيّ بين فرنسا وبريطانيا حول عُمان. وفي ظرف قياسيّ صار الدكتور بوعلام خبيرًا بالتاريخ العُمانيّ. وكان من ثمرات ذلك تعاونه الدائم مع مصلحة المخطوطات في عُمان، واكتسب صداقات واسعة في أوساط العُمانيّين، وكلما اقترحت عليه حضور ندوة من الندوات كان لا يتردد في الحضور والمشاركة والنقاش. لقد مرّ من هنا، وترك بصمته الواضحة أينما حلّ.

اللهم تغمده برحمتك التي وسعت كل شيء، إنّك عفو كريم تحب العفو

اذكروا موتاكم بخير